دراسات في القومية العربية

85

د.محمد المبارك

مُحمَّد ﷺ وقَومِه

حكمة إختيار العرب لتأسيس المجتمع الإنساني



منشورات الطليعة

مُحمَّد وقَومِه

حكمة إختيار العرب لتأسيس المجتمع الإنساني

توالت النبوات والرسالات عبر العصور وفي الشعوب والامم ، واقتضت سنة الله في طبيعة الحياة الاجتماعية ان تختلف هذه النبوات والرسالات سعة وضيقا ، وتعسيرا وتيسيرا ، وقسوة ومرونة ، ومادية وروحية بحسب احوال هذه الشعوب ، ومراحل نموها ومستوى ادراكها . والاسلام من بين هذه الرسالات أشملها لنواحي الحياة ، وأرعاها لمصالح البشر على اختلاف أجناسهم وأممهم وأحوالهم ، وأدقها توازنا بين المادية والروحية والفردية والاجتماعية ، وأجمعها للعناصر الخالدة في الحياة ، وللدوافع النفسية والضوابط الاجتماعية ، وافسحها مجالا لاعمال الرأي وارتقاء العقل .

فلا عجب بعد هذا ان تكون شخصية الرسول المبلّغ لهذه الرسالة متناسبة في سعة المدارك ونفاذ الفكر وعمق الوعي ورقة الشعور وتعدد الآفاق والميادين وسمو الروح مع آفاق هذه الرسالة وخصائصها ، وان يكون هذا الرسول بين الانبياء والرسل في المنزلة التي تقع فيها رسالته بين الرسالات والنبوات .

واذ كانت رسالة الاسلام انسانية عامة فان عبء تبليغها ونشرها بين الناس لا بد ان تقوم به جماعة منهم تكون قادرة على تفهم هذه الرسالة وادراك أهدافها ومراميها وتمثّل روحها وتقبّل تعاليمها واجادة تنفيذها .

وكذلك قضت حكمة الله أن يكون العرب ، قوم الرسول الكريم ،

هم أول المبلّغين وان يكونوا النموذج الاول الذي قام بالتجربة الروحية والاجتماعية ، ليكون هذا النموذج قدوة لسائر الامم ولجميع الناس ؛ وان يكونوا بعد ذلك هم الذين يبلّغون غيرهم رسالة الاسلام ويعلّمونها للناس ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا .

ان هذه الامة التي اصطفى الله منها رسوله الى الناس كافة ، وحمّلها أمانة التبليغ لغيرها ، لاجرم ان فيها من المزايا ما يؤهلها لهذه المنزلة التي أحلّها الله اياها .

ان عرب الجزيرة قبل الاسلام كانوا على منزلة عالية من ذكاء الفطرة وقوة الفراسة وسداد التفكير وان لم يكونوا أهل علم ودرس . كما كانوا أصحاب اباء وشمم ومروءة ومكارم ، يبذلون الاموال والارواح في سبيل ما يعتقدون انه شرف ومروءة ، وقد يغالون في اندفاعهم في سبيل الغايات المثالية حتى يقعوا في اسراف يؤدي بهم الى المساوىء ؛ فيضيّعون المال الكثير في سبيل ضيف واحد ، ويقتلون خوفا من الوقوع في العار أو طلبا للثأر . لقد وضعوا مواهبهم في غير موضعها وضلوا الهدف الذي يجب ان يسيروا نحوه وأسرفوا حتى وقعوا في النقيصة ، ولذلك وصفهم القرآن الكريم بهذه الاوصاف الثلاثة فقال عنهم ، انهم مسرفون : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم **قوما مسرفين**) «سورة الزخرف » وانهم غافلون في قوله : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم **غافلون**) « سورة يس » ، وانهم ضالون : (واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله **لمن الضالين**) « سورة البقرة » . لكن هذه الاوصاف لاتدل أبدا على سوء الفطرة فقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم صلوات الله عليه : (ووجدك **ضالا فهدى**) وقال أيضا : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله **لمن الغافلين**) .

وخلاصة القول في العرب قبل الاسـلام انهم قوة لم توضع في موضعها ، قوة في العقل وقوة في الخلق ولكنها ضلت سبيلها ، وانحرفت عن الوجهة المثلى ؛ وهذا ما ينطبق عليه الوصف بالاسراف والضلال ، ولو لم يكن في العرب هذا الاستعداد وتلك الفطرة لما اختار الله منهم رسوله ولما اختار منهم صحابة نبيه وتراجمة دينه وجعل منهم هداة للدنيا، لقد كانت تلك القوة محتاجة الى حسن استخدام واستثمار ، وكانت تلك المواهب في حاجة الى تزكية وتوجيه ، فجاءت رسالة الاسلام من الله لتصنع من هذه القوة الضائعة والمواهب المهدرة المعجزة الكبرى • ويؤيد هذا المعنى عدد من الآيات التي تشير الى اختيار الرسول العظيم من العرب كقوله تعالى : (لقد جاءكم رسول **من انفسكم**) وقوله : (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا **من انفسهم**) • وقول الرسول صلوات الله عليه وعلى آله : « أنا خيار من خيار من خيار » بالاضافة الى قوله : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » ، ويشهد له كذلك اشادته بحلف الفضول وبخصال بعض الجاهليين كحاتم الطائي •

ان تلك القوة البشرية الهائلة التي كانت تتمثل في العرب ، كانت قبل الاسلام أشبه بانسان خارق الذكاء نادر المواهب ، لم يستفد علما ينفع الناس به ولم تستثمر مواهبه فيما خلقت له من نفع المجتمع • واذا كانت هذه مواهب العرب ومزاياهم فقد حرص النبي الكريم (ص) على هداية قومه أشد الحرص كما تشهد لذلك الآيات الكثيرة كقوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقوله : (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل) « النحل » وقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم)، ولم يستنزل عليهم عذاب الله، كما

فعل من قبله من الانبياء، فهو الذي قال يوم فتح مكة: اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم الله الكعبة جوابا لمن قال : اليوم يوم الملحمة وطالما ردد : (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) . ذلك انه كان ينتظر منهم الخير العميم للبشرية وينتظر تحقيق وعد الله الذي وعده اياه (وانه لذكر لك ولقومك)، (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) .

نعم ان العهد الذي سبق الاسلام جدير بأن يسمى **بالجاهلية** ؛ وهو الاسم الذي اطلقه القرآن والعرب أنفسهم بعد الاسلام على ذلك العهد. والجهل هنا بمعنى وضع الاشياء في غير مواضعها ، وعدم مراعاة ما تقتضيه الحكمة ، وليس معناه نفي العلم ، وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لصحابي قال لآخر يا ابن السوداء : « انك امرؤ فيك جاهلية » . فالجاهلية عهد وضعت فيه قيم الاشياء في غير المواضع التي يجب ان توضع فيها ؛ وعلى هذا فليس معنى الجاهلية الانحطاط والوحشية كما ظن بعضهم ، كما ان اطلاقها على ذلك العهد صحيح لاغبار عليه لاينسب الى الخطأ في فهم ذلك العصر . ومن اصدق حكما من الله الذي سماه جاهلية في محكم كتابه (أفحكم الجاهلية يبغون) « المائدة » ، (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) « الفتح » ، ومن رسوله الذي سماه كذلك بالاسم نفسه ، ومن الصحابة ، ابطال العرب الذين طالما تردد على السنتهم قولهم كنا نفعل كذا وكذا في الجاهلية .

لقد صنع العرب قبل الاسلام حضارات في بقاع مختلفة من أرضهم، ولكنها كلها كانت اقليمية محلية غير شاملة للعرب ولا عامة في جميع بلادهم ، وكانت مقتصرة على ناحية من نواحي الحياة كالصناعة والزراعة والتجارة ، فلم تكن ذات فكرة أو رسالة ، وكانت متأثرة بغيرهم من الامم

الاعجمية كالروم وفارس والحبشة ولم تكن عربية خالصة . وأول حضارة للعرب جمعت شملهم وعمت أرضهم وكانت عربية بالصبغة لا عجمة فيها ، وذات رسالة عامة قابلة للنشر والتعميم انما كانت بعد ظهور الاسلام وحملهم لرسالته . ولذلك فلا مجال مطلقا للمقارنة أو المقايسة بين حضارات العرب القديمة وحضارة العرب بعد الاسلام . فرسالة الاسلام التي جاءهم بها محمد صلى الله عليه وسلم نقلتهم الى الصعيد العالمي ، وجعلت لهم الأثر العظيم في تاريخ البشرية وتطورها . لقد كان من وراء حب الرسول لقومه حبه للانسانية جميعا ، فقد أراد الله له ان يجعل من قومه رسلا للخير ودعاة الى الحق وانصارا للعدل ومحررين للانسانية من العبودية ، ولم يضحّ بالحق والعدل والخير في سبيل قومه ، بل رفع قومه الى مقام الدفاع عن هذه المثل العليا الانسانية ، حتى أصبح مجد قومه ورفعتهم مجدا للانسانية كلها والدفاع عنهم دفاعا عنها . لقد جعل من قومه مجاهدين في سبيل تحرير الانسانية ورقيها ولم يسخر البشر لمجد قومه . وفرق كبير بين امة تنال المجد والذكر بما تقدمه للانسانية من خير ، وأمة تريد ان تفرض نفسها على البشر وتجعل من نفسها امة فوق الامم وتعمل لمجدها وحدها وتربي ابناءها على عصبية الدم واستعلاء الجنس وانانية الجماعة .

ان النبي العربي صلى الله عليه وسلم لم يعمل على اغناء قومه ونفعهم واعزازهم بافقار الشعوب الاخرى والاضرار بهم واذلالهم وان حصلوا على الغنى والعز والمنفعة .

ان ما في رسالة الاسلام من روح انسانية ومبادىء تقدمية للبشر وتعاليم اخلاقية وتشريعات عادلة هو الذي رفع من شأن العرب في العالم

وأحدث لهم ذكرا ومجدا لا يمحى على الدهر . ولذلك كانت الصلة بين العرب ورسالة الاسلام صلة ثابتة خالدة لا تنفصم عراها ، ولا يرضى بالفصل بينهما الا كل جاهل لتاريخ العرب وتاريخ العالم ، أو شعوبي حاقد ينقم على العرب فضلهم وينتقص من المنزلة التي أحلهم الله فيها .

ان الله اصطفى رسوله العظيم الى الانسانية من هذه الامة الكريمة ، وجعل هذه الامة العربية مسؤولة عن هذه الرسالة الانسانية لما آتاها من مزايا تؤهلها لذلك فقال في قرآنه العظيم : (**وانه لذكرلك ولقومك وسوف تسالون**) ولذلك خاطبها أولا فقال : (**إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**) ، ولكن هذه الرسالة التي حملوا عبأها انسانية عامة خالدة مع الدهر ، لما تحتويه من عناصر الخلود في عقيدتها الرائعة ومبادئها الخلقية والتشريعية : (**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**) ، (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**) .

القرآن والأمة العربية

« انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »
« يوسف »

ان هذا القرآن العظيم الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، في جميع أنحاء العالم بلفظه العربي ، يحمّل الامة العربية قبل غيرها ــ واكثر من غيرها من الامم ــ مسؤولية عظيمة ثقيلة امام الله وأمام العالم ، وتحتاج هذه المسؤولية الى تنبه ووعي والى استعداد وعمل والى نضال وجهاد . ذلك أن هذا الكتاب الكريم الذي جاء بمبادىء انسانية فخاطب الناس جميعا دون تخصيص ، وذكر فيه الانسان أي انسان في مراحل خلقته واطوار تكوينه وفي طبائعه ونفسيته وأتى بمفاهيم انسانية للحق والعدل والخير فقال جل جلاله : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر

وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال : (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) وقال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) • ان هذا الكتاب الانساني في تعاليمه ، العام في خطابه ، العالمي في دعوته ، قضت حكمة الله في ان يبدأ تبليغه لامة بعينها وان ينزل أولا في جوها ووسطها وبين أفرادها وان يصاغ بلغتها وتعابيرها وان تكون هي التي تعيه أولا ثم تبلغه للناس جميعا وتنقله الى العالم •

لقد كان شرفا للعرب في ان يكون منهم الرسول الذي تختم بـه الانبياء وان يحملوا الرسالة التي هي خاتمة الرسالات ، وان تصاغ الانسانية بلغتهم وان يجعل الله منهم حملة الفكرة أو العقيدة العامة ، والمبشرين بالمفاهيم الانسانية في الاخلاق والتشريع والحضارة ، وأن يكونوا في ذلك شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليهم •

ولقد أصبح بين القرآن ــ ذلك الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ــ وبين الامة العربية صلة لا تفصم ورابطـة لاتفك ، وهي الصلة بين رسالة عالمية ، وامة مبلغة ، ولغة معبّرة .

١ ــ لقد قضت ارادة الله أن يكون الرسول العالمي الانساني المبعوث رحمة للعالمين من هذه الامة العربية (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة وان كانوا من قبـل لفي ضلال مبين) « آل عمران » قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : من أنفسهم ، أي من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والامانة • وقال ابن كثير : أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به •

٢ ـ ولقد أمر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه بأن يبدأ بعشيرته (**وانذر عشيرتك الأقربين**) . « الشعراء » وان يبشر بدعوته في مكة وما حولها أولا : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا **لتنذر ام القرى ومن حولها** وتنذر يوم الجمع لاريب فيه) . « الشورى » .

٣ ـ ثم عمت الدعوة العرب كلهم ، وبُشّروا بما سيكون لهم بهذه الدعوة من مجد ورفعة وشرف ، بقيامهم بعبء تبليغ هذه الرسالة ، ونقل هذه الدعوة الخيّرة الانسانية التي جاء بها القرآن العظيم الى الناس كافة ؛ وقد قال الله تعالى في (سورة الزخرف) مخاطبا رسوله الكريم : (**وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون**) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (قيل معناه لشرف لك ولقومك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواه وقيل معناه : لتذكير لك ولقومك) قال ابن كثير : وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله تعالى : (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) وكقوله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) . وسواء أكان الذكر في هذه الآية بمعنى الشرف والرفعة ـ وهو ماحصل فعلا للرسول صلى الله عليه وسلم وللعرب بسبب رسالة القرآن والاضطلاع بحملها وتبليغها ـ أو بمعنى التذكير فان في هذه الآية تخصيصا لقوم الرسول بالذكر والقاء مسؤولية ضخمة على عواتقهم ولذلك ختم الآية بقوله « **وسوف تسالون** » .

وقد وردت عدة آيات تتضمن تخصيص قوم النبي بالخطاب ، ثم تعميمه على الآخرين كقوله تعالى : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه) . «الشورى» وقوله : (وأوحي اليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) . «الانعام» .

٤ ـ وقد كان هذا البدء بالعرب قوم النبي طبيعيا اذ ليس من الممكن الميسور ان يبلّغ الناس جميعا في آن واحد ، وكيف السبيل الى ذلك وهم مختلفون في ألسنتهم ، ناؤون في ديارهم ؛ ولذلك نزل الخطاب بلغتهم ليتمكنوا من فهمه ، ثم دعوة الامم الاخرى الى مبادئه وتعاليمه ؛ ويفهم هذا من قول الله تعالى : (فانما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) سورة «الدخان» ومن قوله كذلك : (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وتكرر هذا المعنى في آيات عدة منها قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) . «طه» وقوله : (كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) .

وقد كان من حجة الله على العرب انه أنزله بلغتهم ليفهموه قال تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) «فصلت» . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أي لقالوا : هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ولانكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لايفهمه هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم) .

وقال تعالى في سورة الرعد : (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) قال الزمخشري أي حكمة عربية مترجمة بلسان العرب . فهل يمكن أن يفهم من هذه الآيات الكريمة الا ان الله أنزله بلغتهم ليستطيعوا فهمه وليعقلوه ويعلموه ثم ليبلغوه الى الناس كافة وفقا لما أمرهم الله . ولذلك كانت اللغة العربية ، وفهمها فهما عميقا صحيحا بمفرداتها وتراكيبها ومفاهيمها وأساليبها ، طريقا الى فهم رسالة القرآن وكان تعلمها واجبا على المسلمين

لتوقف فهم القرآن عليها •

ولكن هذا القرآن ، الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والكون والاعتقاد بخالق أبدي منه البداية واليه المرجع والنهاية ، كما تضمن مسؤولية الانسان أيا كان عن اعماله ، واشتمل على مبادىء اخلاقيةوعلى نظام تشريعي مبني على أساس المساواة بين البشر ، ان هذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية العامة ، لم يبدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيم تشريعا على أساس التمييز العرقي ، وهو الذي دعا الى المساواة بين البشر قبائل وشعوبا ، ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم امانة ثقيلة ، واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر ، وليجعل منهم أمة معلمة مرشدة تقود الناس الى الخير والحق •

٥ ـ فالعقائد والمبادىء والنظم التي جاء بها القرآن لا تخص قوما أو جماعةولكنها عامةللبشر، وليس العرب الا مبلّغين ومبلّغين **(ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس)** «الحج» وبهذا نطق القرآن فأعلن عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: (قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) «الاعراف» وقال **(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)** «الانبياء» وفي سورة اخرى : (ان هو الا ذكرى للعالمين) وقال مصرحا بعموم رسالته الى الناس : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً) «سبأ» وفي سورة الفرقان : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) •

وليس بعد هذه الآيات من شك في عموم رسالة النبي العربي صلى الله عليه وسلم وان من شرف العرب ان يكون النبي الذي خرج من بينهم رسولا الى العالم يحمل اليه من الله المبادىء الصالحة لتعاون البشر في انسانية سعيدة ، وان يكون بنو قومه هم حملة هذه الرسالة وأعوانه في تبليغها، وأن تكون لغتهم هي المعبّرة عنها ، وبذلك انتقلوا الى الصعيد العالمي والمستوى الانساني ، وأصبحت كذلك لغتهم التي بها نزل القرآن لغة عالمية ، لغة حضارة انسانية •



إن هذا الشرف يحمّل العرب اليوم امانة ثقيلة ، وان رسالة القرآن الانسانية التي شعت من بلاد العرب وبلغتهم تحمّل المسلمين في اقطار الارض واجبا عظيما هو تحرير البلاد العربية وتوحيدها لانها الركيزة الاولى والدائمة لرسالة القرآن ودعوته الانسانية السامية .

قال العالم المفكر الهندي المعاصر الاستاذ ابو الحسن الندوي : (ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد الاسلام ومشرق نوره ومعقل للانسانية وموضع القيادة العالمية) (١) .

ان اهمال ما للعرب من موقع في بناء الاسلام ، وما للغتهم وأساليبهم من منزلة في فهم شريعة القرآن ومبادئه جهل بالاسلام نفسه وتاريخه ومراحله ، وأضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها ؛ وان فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه ، هو فصلهم عن تاريخهم وعن حضارتهم وعن روحهم المتأصلة في نفوسهم ، وتشويه لشخصيتهم ، وأضعاف لقوتهم ، وهبوط بهم عن مرتبة القيادة العالمية ، ورجوع بهم الى مراحل متخلفة تجاوزوها ، ولا تزال بعض الامم التي تعتبر راقية متمدنة لم تبلغها حتى اليوم .

أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسعهم

اننا لنعجب اليوم كيف كانت ذكرى مولد الرسول العربي ، وهي ذكرى ثورة وحياة وايمان ، بعيدة كل البعد في هذه العهود المنصرمة عن أن تثير شيئاً من روح محمد صلى الله عليه وسلم القوية ومن تعاليم

(١) كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ الطبعة الثانية ـ ص ٢٤٥ .

رسالته ، تلك الرسالة التي لا تقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغي المستبدين . فقد تلونت حفلات مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في كل عصر بلون ذلك العصر ، وان لذلك قصة طويلة تخرج عن نطاق موضوعنا ، وانما أردنا أن ننبه الى ان بين ذكرى النبي العربي صلى الله عليه وسلم ووحدة العرب وشعورهم بالقوة والايمان علاقة متينة ، وهذا ما نريد أن نبحثه في هذه الكلمة .

معنى الوحدة والتوسع

ان لهذين اللفظين من الوجهة العلمية التاريخية معنى غير ما يفهمه جمهور الناس وعامتهم ، وهو معنى أدق وأوضح ، فلا بد من ايضاح هذا المعنى . فليست الوحدة ان يجمع حكم سياسي واحد عددا من الافراد في قطعة من الارض . فقد يكون الحكم السياسي واحدا ولا يكون بين الخاضعين له وحدة حقيقية ، فقد تختلف وجهاتهم وتتفاوت روحياتهم . وعلى العكس من ذلك فقد تكون الوحدة الحقيقية موجودة مع اختلاف الحكم السياسي كما هي الحال في البلاد العربية ــ أو في أكثر أقطارها على الاقل ــ في عصرنا الحاضر . فالوحدة السياسية غالبا من جملة مظاهر الوحدة ، ولكنها نتيجة عنها وليست سببا لها . فلو انك جمعت أشتاتا من الامم لا تؤلف بينها وحدة في الشعور الروحي وفرضت عليها نظاما من الحكم واحدا فهل تظن انك بذلك تخلق بينها وحدة اذا كانت هذه الوحدة مفقودة ؛ اللهم الا اذا استطاع هذا الحكم المفروض ان يساعد ويعمل على نشوء هذه الوحدة الحقيقية . وانما وحدة الامة في شعور جماعة من الناس بانها تؤلف جسما حيا واحدا يعمل جميع أفراده أعمالا منسجمة تؤدي الى تحقيق غاية واحدة . فاذا ما حصلت هذه الوحدة

حصلت وتولدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية وكانت نتائج طبيعية لها والف اولئك الافراد شيئا جديدا يسمى أمة تتميز من غيرها تميز الاجسام الطبيعية أو الانواع الحية بعضها من بعض بخصائصها [1] .

وقد تقضي الشعوب زمانا طويلا حتى تصل الى هذه المرحلة ، فهي تتفاوت في سرعة الوصول اليها كما تتفاوت أيضا في خصائص الامة التي يؤلفها كل منها .

وان هذا الانسجام الذي تحدث الوحدة بحدوثه ويتولد من جملة الظروف الطبيعية والتاريخية ، يتجلى في فهم الحياة فهما متشابها حتى كأنه ضرب من الغريزة تتولد في عرق بشري فيقود افراده الى سلوك طرق متشابهة في الحياة وفهم الكون والحياة فهما متقاربا متشابها ، ويؤدي ذلك عمليا الى اندفاعات متماثلة تؤدى بسبب انسجامها الى غاية واحدة وتجعل هذه « الغريزة الموحدة » من الامة جسما حيويا مستقلا وتتولد عنها وحدة في العادات والآداب والتشريع والعقيدة والفكرة . وكلما كانت تلك الامة أكثر انسجاما في جسمها الحي ، راقية الاعضاء والاجهزة ، موزعة الوظائف قائمة بها خير قيام كانت ارفع مدنية وأدت الى المدنية العامة خدمة جلى بنبوغها وعبقريتها واتاجها في التفكير والنظم والمؤسسات .

---

(١) لانوافق اصحاب الفكرة القومية من الاوربيين الذين يزعمون ان الفوارق بين الامم هي كالفوارق الكائنة بين الانواع الحية ، انما قصدنا بما اوردناه مجرد التشبيه والتقريب فقط لا متابعتهم فيما ذهبوا اليه من تطبيق نظرية الانواع على المجتمعات البشرية .

هذه هي « مرحلة الوحدة » في تطور الامة • وتلي هذه المرحلة « مرحلة التوسع الحيوي » • فان الامم تتفاوت في الدرجات التي تصل اليها تفاوت الاجناس الحية في ارتقائها سلم الحياة • وأسباب هذا التفاوت راجعة الى الظروف الجغرافيةوالاجتماعية التي تمر بها [١] والتي قد تؤدي بها الى العقم أو الى الخصب ، ويكاد يكون في القضية شيء من الحظ المقدر لكل امة ، فان غريزة العرق والاتجاه الذي تتجه نحوه ودرجة الانسجام بين الافراد ليست واحدة في كل الامم •

وعلى هذا فليس التوسع بسط امة نفوذها بالقهر والغلبة على امم اخرى دون ان تستطيع تأليف جسم منسجم معها ؛ فالقوة وحدها لاتكفي لتوسيع نطاق الامة • فهذه الدول المستعمرة اليوم قد مر عليها في بعض البلاد العربية ما يزيد على قرن ولم تستطع ان تتمثلها ؛ ولو رفع الضغط قليلا لرأيت الانفصال السريع بين جسمين متباينين كل التباين فيروحيهما وغريزتيهما • فليس هذا من التوسع الحيوي في شيء ، وانما التوسع الحقيقي مرحلة تلي الوحدة تشعر فيها الامة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها ، واذا كانت ذات روح قوية تمثلت البشرية جميعا في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثل العناصر الاخرى تمثلا حقيقيا ليست القوة وحدها هي الاساس فيه ، وأصبحت قادرة على ان تكون مشرعة لنفسها ولغيرها ، وربما هديت للدستور البشري العام ــ او لدستور صالح لقسم كبير من البشر ــ تقف دونه الامم الاخرى عاجزة حائرة •

فلننظر الآن في أمر العرب : الى أي المراحل الحيوية وصلوا وماذا

---

(١) وينسب غلاة القومية ولا سيما الالمان هذا التفاوت الى امر غريزي ثابت في العرق لا الى ظروف خارجية سواء أكانت طبيعية او اجتماعية .

كان أثر الرسالة الاسلامية وصاحبها في ذلك ؟

العرب قبل الاسلام

الى أي مراحل الحياة وصل العرب قبل الاسلام ؟ وما هي قيمة مدنياتهم قبل الاسلام بالنسبة اليهم وبالنسبة الى المدنية العامة ؟

اذا اطل المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد ان العرب من اقدم الامم التي عرفت وأقواها . فاننا اذا القينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا ان العرب أسسوا مدنيات قديمة متعاقبة تبتدىء بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنيات تتعاقب خلال الزمن منتقلة من مقر الى مقر في اليمن وفي البتراء في الاردن وفي تدمر والحيرة والشام . هذا اذا لم نذكر الامم التي لايزال البحث في كونها عربية رهن التحقيق التاريخي . فكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع من الارض ، وكأنهم يطلون على الزمن من وراء حجب الغيب ليثبتوا للعالم وجودهم ولينظروا ان كان عملهم الاكبر في تاريخ العالم قد آن أوانه ، وكأن هذه المرحلة الطويلة من تاريخهم قبل الاسلام كانت مرحلة التهيئة والتجربة لرسالتهم الحاسمة في تاريخهم وفي تاريخ العالم .

واذا نظرنا الى حال العرب بعد هذه الآلاف من السنين التي مرت وحين ظهور الاسلام وجدنا ان لهم مراكز أربعة أو خمسة يؤلفون في كل منها بيئة خاصة لها مميزاتها : (١) ففي الشام عرب الغساسنة وهم أهل حضارة ومتأثرون في الكثير من أحوالهم بالبيزنطيين ، (٢) وفي العراق عرب الحيرة أو المناذرة وهم متأثرون بعض التأثر بفارس ، (٣) وفي الجنوب في اليمن مملكة صغيرة مستقلة كانت لها مدنية قديمة ولكنها تعرضت لهجوم الحبشة وتأثير نفوذ الفرس فضعف شأنها ، (٤) واما الحجاز فكان يتألف من مدن تحضرت فيها بعض القبائل البدوية حتى أصبحت



مركزا تجاريا دينيا • ويجري بين هذه المراكز والبيئات العربية مادة سيالة متحركة ، هي القبائل البدوية المنتشرة من أقصى الجزيرة في جهة الجنوب الى أقصى الشمال والشمال الشرقي منها • ولا بأس ان ننظر بعد هذا الى الحجاز خاصة لانها هي الارض التي ظهر منها الاسلام •

الحقيقة انه كان للحجاز في البلاد العربية موقع خطير جدا • ذلك انه البوتقة التي كانت تنصهر فيها القبائل العربية ، فتتحضر وتنقلب مادة من نوع آخر ، وهي صلة الوصل بين الحياة العربية البدوية والحياة الحضرية ، وهي بذلك تجمع الى محاسن حياة البدو ، من قوة ونشاط وحركة وتضحية واخلاق قويمة ، محاسن حياة الحضر من تنظيم وحياة نامية بعض النمو في الناحيتين الاقتصادية والدينية ، وتتجنب مساوىء البداوة من الفوضى والامعان في القتل واستمرار حياة الغزو ، بما وجد فيها من أنظمة دينية تقتضي السلم كنظام الحرم والاشهر الحرم ، وأنظمة اقتصادية وقضائية وان تكن بسيطة ، وتتجنب مساوىء الحضارة في الاستسلام الى الرفاهية والراحة •

وتجمع الى ذلك مزية خاصة بها وهي انها اقل البلاد العربية تأثرا بالمؤثرات الاجنبية الاعجمية ، بل هي أصفى البيئات العربية الحضرية يومئذ جميعا •

بقي علينا بعد هذه النظرة الموجزة العامة ان نحكم على هذا الدور الذي سبق الاسلام من تاريخ العرب ، من حيث قيمته في تاريخ المدنية ومن حيث قيمته في تاريخ الامة العربية •

اما من الناحية الاولى فان التاريخ لم يعط بعد جوابه النهائي في هذا الموضوع ، أي أنه لم يجب بعد جوابا كاملا على هذا السؤال : ماذا خلفت المدنيات العربية القديمة من أثر في المدنية العامة ؟ ذلك ان هذا

السؤال يتوقف على معرفة الامم القديمة التي يمكن ان تسمى عربية ، وهي ولا شك أكثر مما تتصور ونعرف الآن ، ويتوقف على تحقيقات اخرى لم تنته بعد ، ولكننا لا نشك بالاستناد الى ما وصلت اليه الابحاث التاريخية اليوم ان هذه المدنيات العربية القديمة كان لها أثرها فيما أتى بعدها من مدنيات يونانيةورومانية وفارسيةفي التشريع والادارة والعلم.

اما الحكم على هذه المرحلة بالنظر الى تاريخ الامة العربية ، وهي الناحية التي تعنينا الآن ، فيمكن تلخيصه بأن هذه الموجات العربية المتعاقبة ، وما ظهر للعرب من مدنيات ، تدل على انهم شعب قديم قوي أمتد على مساحة من الارض واسعة ، ورأى من الحياة ألوانا مختلفة من البداوة الى درجات عالية في الحضارة ، وكان لا يزال قبل الاسلام محتفظا بهذه الالوان المختلفة ، وخلّف آثارا في المدنية .

ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة تشعرهم شعورا واضحا قويا بأنهم امة واحدة ، ولا ظهر بعدُ الشعور المشترك العام الذي يشملهم جميعا . فكانت مدنياتهم موضعية خاصة ، وفي كثير من الاحيان، ولا سيما قبيل الاسلام ، متأثرة بتأثيرات اجنبية فارسية أو بيزنطية . لم يكونوا قد وصلوا بعد الى مرحلة الوحدة الحيوية التي أشرنا اليها ، فضلا عن مرحلة التوسع الحيوي . وبعبارة موجزة : لم تظهر بعد رسالتهم الكبرى التي تحتاج قبل كل شيء الى جسم حي متصل الاجزاء منسجم الاعمال والوجهات ، وذلك أمر لم يتم الا بالاسلام .

الاسلام

وهنا نقف باجلال أمام هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب ، أمام تلك الرسالة التي شرفهم الله بها . ولا نشك في ان الله كما قدر ان يكون النبي منحدرا من أشرف الآباء ، قدر كذلك في أحكام غيبه ان يكون العرب من أشرف الامم وأطهرها ، ليجعل منهم

حملة دينه وقرآنه « انا جعلناه قرآناً عربياً غير ذي عوج » وليخرج من بين أظهرهم أشرف رجل خلقه ، وحامل خاتم رسالاته وأوسعها وأعمها .

أسميها « **معجزة** » لانها في الحقيقة نقلت العرب بقفزة واحدة الى مرحلة التوسع الحيوي من حالة الجسم الذي لم تلتحم بعد اجزاؤه ولم تنضج حيويته . نقلتهم من الوحدات الحيوية المتفرقة الى حال الامة التي تشعر شعورا مشتركا لا انها متحدة فحسب بل ان عليها واجب قيادة الامم في شيء كثير من الايمان والقوة ومن غير غرور . هي قوة ولكن ليس غذاؤها الطمع والجشع ، وهو توسع وفتوح ولكنه ليس استعمارا ولا استعباداً .

ظهر الرسول والعرب موزعون من أقصى اليمين الى بلاد الشام والعراق كأنهم بقع مائية لاتكاد تصل بينها الا خيوط دقيقة جدا ، أو كأنهم تلك القطع السديمية الحائرة غير المتصلة ولا المنسجمة . وكانت هذه الكتل العربية في حاجة الى من يجمعها ويقطع عنها التأثيرات الاجنبية التي تحيط بها ، ويفرض عليها نظاما يوحد ما بينها من اختلاف في النظم والتفكير والعادات . وقد كان أثر الاسلام وصاحب الرسالة أكثر من ذلك كله ، اذ انه ما اقتصر على هذا الجمع والتوحيد بل تجاوزهما الى مرحلة التوسع الحيوي ، الى مرحلة جعل فيها من العرب قواداً ومشرعين عالميين .

ويتلخص عمل الرسول وأثر رسالته في العقيدة والنظام الاجتماعي بابعاد كل تأثير أجنبي وجمع المراكز الحيوية المشتتة في مركز واحد ، والقضاء على جميع المراكز الموضعية المجزأة في بلاد العرب وتوحيد مفهوم الحياة عندهم جميعا . وان هذا التوحيد يتجلى في العقيدة والنظام الاجتماعي والديني .

فاما من ناحية العقيدة والعبادة فقد كانت في الجاهلية ملائمة للانقسام القبلي . فقد كان لكل قبيلة إله خاص بها ، وكان لبعض القبائل

كقريش امتيازات دينية خاصة . وكانت الاديان الاخرى كالنصرانية واليهودية مشوبة بتأثيرات اجنبية ولهذا لم تنتشر في العرب . استبدل الاسلام بهذه العقائد المحلية أو الاجنبية عقيدة بسيطة كل البساطة واحدة عامة شاملة ، تلائم الحالة الاجتماعية الجديدة . فان الاعتقاد بإله عام واحد يقابله في المجتمع نظام اجتماعي واحد .

واذا نظرنا الى العبادة المتصلة بهذه العقيدة وجدناها قديما مشتتة . فهناك مراكز دينية مختلفة غير الكعبة . وقد قضى الاسلام على كل مركز آخر غير الكعبة ، ونسخ منها كل ما كان يتجه الى ما هو خارج الجزيرة، أو يذكر به فنسخ التوجه الى قبلة اليهود وجعل القبلة الى جهة الكعبة ، فقلب الجزيرة هو القبلة . وأقر في العبادة كثيرا من الشعائر العربيـة القديمة ، ولا سيما في الحج ، مع الغائه منها ما كان له شكلا موضعيا أو قبليا . وأما قيمة هذه العقيدة وأثرها الكبير في المدنية فهو خـارج عن بحثنا هذا .

هذا في العقيدة والعبادة . واما في النظام الاجتماعي فقد ألغى جميع النظم الموضعية المجزأة . فألغى نظام القبيلة وكل ما يتعلق به من تشريع وألغى قانوني الغزو والثأر والمسؤولية القبلية والمفاخر والامتيازات القبلية واستبدل بكل ذلك نظاما اجتماعيا وسياسيا يقوم على ركنين : الفرد والأمـة .

واذا نظرنا الى العادات التي دعا اليها والتي قضى عليها وجدنا الاتجاه نفسه : الغاء العادات الموضعية والتنفير من العادات الاجنبية . ولهـذا نجد في كثير من الاحاديث على سبيل التنفير مثـل قول الرسول : « لا تفعلوا كما يفعل الاعاجم » . بل نجد قاعدة عامة في ذلك ينص عليها حديث مشهور : « خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا » . وأخيرا تم بالاسلام توحيد اللغـة . فقد قضى القرآن على اللهجات المختلفة وأصبح كتاب العرب الوحيد ، وأصبحت لغته هي اللغة العربية دون سواها من اللهجات . وأعظم من ذلك الفهم التاريخي

الذي يفرضه القرآن ويعطيه الاسلام عن نفسه ، اذ يبين انه تتمة لدين ابراهيم ، الدين الصافي الاول الذي عبد الله به في مكة . فالاسلامعودة الى صفاء هذا الدين واتمام له . وهذه النظرة التاريخية القرآنية تتفق وما قلناه في ابتداء البحث من اعتبار تاريخ العرب يبدأ بظهور أقدم مدنياتهم فيما بين النهرين .

والمعجزة في عمل محمد عليه السلام في كل ذلك هي انه لم يسلك للوصول الى هذه الوحدة طريق الكلام والوعظ المجرد ، بل كان ذلك نتيجة طبيعية لنشر عقيدة دينية ونظام اجتماعي .

وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول ان عمل الرسول وظهور الاسلام هو العمل الحاسم في تاريخالعرب والاول من نوعه الذيأدى الى تكوين أمة واحدة منهم تشعر بانها جسم واحد وتتحرك بحركة واحدة منسجمة ، مركزها قلب الجزيرة وتتجه الى خارجها بقوة . وهو فوق هذا جعل من هذا الجسم الحي المنسجم ، من هذه الامة ، امة مشرعة للعالم ، داعية مدنية وقائدة أمم . فلم يكتف بالمركزة والتوحيد بل تجاوز الى الحياة النامية المتسعة . وان في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة ، موضوعة في دستور تريد ان تشرعه لجميع الناس لدليلا على ان العرب قدر الله لهم ان يصلوا الى أعلى ما يمكن ان تصل اليه أمة من الامم في الحياة . وان في ذلك ما يجعلنا دوما متفائلين لان العرب لم يتموا بعد رسالتهم ولم يصلوا بعد الى مرحلة الشيخوخة والهرم ، لانهم لم يكادوا ينشرون رسالتهم في مدى القرون الثلاثة الاولى في أصفى أشكالها وفي أرقى ما عرفه البشر حتى ظهرت عليهم الامم الاخرى ولم تفهم رسالتهم حق الفهم ، فتغيرت معالمها وتبدلت ، وظهر في الاسلام خصائص هذه الامم الاخرى في أشكال مختلفة . ففي السياسة ظهر المفهوم الفارسي الاستبدادي ، وفي النظام الاجتماعي اقطاعيتهم ، وفي الدين الصوفية الهندية ، وفي الناحية العقلية ثرثرة التفكير اليوناني والمنطق الجامد الفاقد للمرونة . ولكن بالرغم من كل ذلك ، ظلت رسالة العرب تعمل

عملها في المدنية حتى في العصور المظلمة التي كان العرب فيها مقصون عن السيادة. فمحمد صلى الله عليه وسلم اذن، بما نفذه وبلغه من الوحي الإلهي، وحد العرب وجعل منهم جسما حيا من الطراز الاول لا أعتقد ان أمة من الامم وصلت الى مثله . وان رسالة العرب لم تنته ولن تنتهي ، وهي رسالة حرة لا تقبل الاستعباد ولا القيود ، رسالة قـوة لا تقبل الذل والضعف ، رسالة شعور قوي وايمان بالله وبنصره ، رسالة طموح وسمو لاقناعة وقعود . فلنتخذ من ذكرى محمد صلى الله عليه وسلم ما يبعثنا على العمل لما عمله قبل كل شيء من توحيد العرب ، ثم دعوتهم لاتمام رسالتهم السامية في هذا الكون فان العرب باقون في الارض ما بقيت ورسالتهم رسالة الخلود .

د.محمد المبارك

دمشق 1959

دراسات في القومية العربية

الطليعة العربية في تونس

منشورات

الطليعة العربية في تونس

أكتوبر 1989